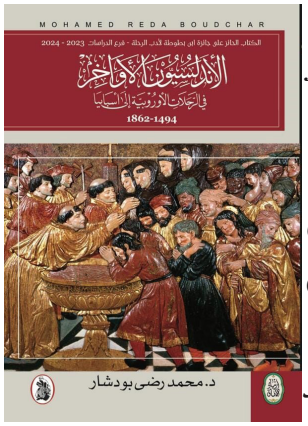

Mohamed Reda Boudchar.- *al'Andalusiyūn al'awākhir fī al-rihlat al'ūrūbiya 'ilā Isbāniyā* ('abū Dhabi-Bayrūt: dar alsuwaidi-al-muasasat al-'arabiya li al-tawzī' wa al-nashr, 2024), 365p.

محمد رضى بودشار.– الأندلسيون الأواخر في الرحلات الأوربية إلى إسبانيا (أبو ظبي–بيروت، دار السويدي–المؤسسة العربية للتوزيع والنشر، 2024)، 365 ص.

تعززت الخزانة العربية والمغربية بدراسة جديدة من إنجاز محمد رضى بودشار عنوانها **الأندلسيون الأواخر في الرحلات الأوروبية إلى إسبانيا: 1494–1862**، والتي حازت على جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة، فرع الدراسات 2023–2024، ونشرت ضمن سلسلة ''ارتياد الآفاق'' المرتبطة بالجائزة المذكورة في العاصمة الإماراتية، وتقع في 356 صفحة من القطع المتوسط. ونقترح في هذه الورقة التقديمية الوقوف عند الخطوط العامة المميزة لهذا العمل الذي يعد إضافة جديدة في مجال تاريخ الأندلسيين الأواخر ومأساتهم تحت الحكم الإسباني بعد سقوط غرناطة سنة 1492م.

عَنون المؤلف كتابه بـ **الأندلسيون الأواخر في الرحلات الأوروبية إلى إسبانيا: 1494– 1862**، ونلاحظ منذ البداية أنه استخدم عبارة ''الأندلسيون الأواخر'' في سياق الاتجاه السائد عند المدرسة التاريخية الأندلسية والمغربية في السنوات الأخيرة، والذي يميل نحو استهجان عبارة ''الموريسكيين'' المستعملة عادة في هذا السياق، والتي سادت في الكثير من الكتابات العربية المعاصرة، ولا نجد لها أثرا في النصوص العربية – على قلتها – العائدة إلى الحقبة المدروسة. ذلك أن لفظ ''لموريسكي'' يحمل دلالة قدحية، واستعمله الإسبان في وثائقهم ونصوصهم يومها لتحقير الأندلسيين، وبالتالي كان من المعيب أن تتلقفه الكتابات العربية المعاصرة بطريقة متسرع، ويشيع استخدامه على نطاق واسع حتى بين بعض أحفاد هؤلاء الأندلسيين أنفسهم. وبناء عليه، تجنب المؤلف السقوط في فخ هذا المصطلح، ولجأ بدلها إلى استعمال عبارة ''الأندلسيون الأواخر'' التي تعتبر أكثر واقعية، والمقصود بها طبعا كافة الأندلسيين الذين عاشوا تحت الحكم الإسباني بعد سقوط غرناطة سنة 1492، تمييزا لهم عن الأندلسيين الأوائل الذين عاشوا في قرون الحكم الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية. وتقابل هذه العبارة ألفاظ ''الأندلوس،'' و''بقية الإسلام،'' و''الدجن،'' و''المدجَّنون''... إلى غيرها من أسماء تاريخية مشابهة أطلقت عليهم في النصوص المعاصرة لهم أو عاصرت هجراتهم إلى بلدان شمال إفريقيا والإمبراطورية العثمانية.

أما الشق الثاني من العنوان، فتمثله عبارة في ''الرحلات الأوروبية إلى إسبانيا،'' والمقصود هنا أن المادة المعتمدة في تصوير أحوال الأندلسيين الأواخر، ليست نصوصا أندلسية ولا عربية عموما ولا

نصوصا إسبانية، بل نصوصا لرحالة أوروبيين أجانب عن إسبانيا زاروها خلال حقب مختلفة، حين كان الأندلسيون خلالها لا يزالون كيانا له وجود مستتر داخل إسبانيا، إلى أن جاء قرار الطرد عام 1609م فخرج من خرج منهم، وبقي من بقي بصفة فردية مستترا دون أن يبلغ درجة ''الجماعة'' المؤثرة كما كان عليه الحال مع ''الجماعة'' الأندلسية قبل 1609. وقد أطر المؤلف هذه الرحلات زمنيا بين 1494 و1862م. وتغلب على رحاليها الجنسية البريطانية، مع وجود رحالة من فرنسا وألمانيا والفلمنک (هولندا وبلجيكا)، فضلا عن منتمين للإمارات الإيطالية كالبندقية وغراندوقية توسكانيا.

جاء اختيار التاريخ الأول لكونه يتبع سقوط غرناطة بسنتين فقط، وهو تاريخ أول رحلة أوروبية زارت أماكن وجود الأندلسيين بعد السقوط، وهي رحلة الألماني هيرونيموس مونتزر، وينتهي الإطار الزمني في عام 1862 أي في منتصف القرن التاسع عشر الذي يمثل بداية الكثير من التحولات داخل الدولة الإسبانية. وجاء تحديد هذا التاريخ بالضبط، لأنه تاريخ نهاية آخر رحلة إلى إسبانيا في تلک الحقبة التي كتبها البارون الفرنسي شارل دافيي، وإن كانت قد طبعت بعدها بسنوات.

يتكون الكتاب من مقدمة وخاتمة بينهما أربعة فصول: الفصل الأول يمثل مدخلا نظريا ومنهجيا للموضوع، والفصل الثاني يتعلق بقضية ''الاستمرارية،'' والثالث ''بمحاكم التفتيش،''والأخير بمسألة ''الطرد.''

في بداية الفصل الأول، يعرج المؤلف على ما كتب عن الموضوع سواء بالعربية أو باللغات الأجنبية، ويخلص إلى أن ما كتب باللغات الأجنبية أكثر، ولكنه جزئي اهتم بمنطقة محددة أو بحيز زمني ضيق أو برحلة واحدة محددة، أما ما كتب باللغة العربية فركز على استخراج المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والبرهنة على وجود الأندلسيين بعد الطرد بطريقة مقتصرة على الوصف دون تحليل، وهو ما دفعه إلى القيام بجرد شامل للرحلات الأوروبية إلى إسبانيا خلال الحقبة المحددة واستخراج كل ما يتعلق بالنكبة الأندلسية من خلالها، والبحث في خلفيات هؤلاء الرحالة وانتمائهم الاجتماعي وتكوينهم الثقافي والعلمي والديني، مع المقارنة مع نصوص الرحلات المغربية الثلاث إلى إسبانيا خلال هذه المدة الزمنية الطويلة: رحلة الوزير الغساني، وأحمد بن المهدي الغزال، وابن عثمان المكناسي. كما خصص المؤلف مبحثا خاصا ''بالمصطلح،'' أي عبارات ''الموريسكيين،'' و''الأندلسيين،'' و''المدجنين،''والسياق التاريخي لكل واحدة منها، وبحث في السبب الذي أدى إلى بروز عبارة ''الموريسكيين'' في الكتابات الإسبانية وتسربها إلى الكتابات الإسبانية المعاصرة، وإلى الدراسات العربية في القرن العشرين. ويصوغ المؤلف أطروحة مفادها أن المصطلح القدحي لم يظهر في الكتابات الإسبانية خلال القرن الخامس عشر دفعة واحدة، بل ظهر بطريقة تدريجية فكان في البداية مقتصرا على بعض مظاهر حياة المسلمين المدجنين في إسبانيا، ثم هيمن بصفة مطلقة ابتداءً من ستينيات القرن الخامس عشر، بعد أن عوض مصطلح ''المسيحيين الجدد،'' وكان لهذه الهيمنة ارتباط وثيق حسب المؤلف بأحداث ثورة البشرات، في الوقت الذي لم يصف الأندلسيون أنفسهم بهذا النعت إطلاقا، سواء داخل شبه الجزيرة أو بعد هجرتهم منها إلى البلدان الإسلامية. وهو ما يؤكد الصبغة القدحية للمصطلح، ويفتح المجال لإعادة النظر في استخدامه.

في الفصل الثاني من الكتاب، انتقل المؤلف إلى استخراج المعطيات المتعلقة بقضية تاريخية مهمة جدا، هي قضية استمرار وجود الأندلسيين في إسبانيا بعد سقوط غرناطة. وإذا كان هذا الاستمرار معروفا إلى غاية 1609م، فإن الكثير من النصوص تشير إلى أن هذا التاريخ يمثل ''طردا نهائيا،'' انمحت من بعده كل آثار الإسلام في شبه الجزيرة، ولكن الكثير من القرائن تشير إلى أن الأندلسيين و''الإسلام السري،'' استمرا موجودين في الأندلس إلى القرن التاسع عشر الميلادي، وهو ما عمل الباحث على مقاربته من خلال نصوص الرحلات الأوروبية التي اشتغل عليها.

ويرصد المؤلف في الوقت ذاته ''المرحلة الانتقالية'' كما يسميها، بين مصطلحي ''المدَجَّنين'' و''الموريسيكيين،'' انطلاقا من رحلة مونتزر، ووصولا إلى رحلات نهاية القرن السادس عشر، وبداية القرن السابع عشر، حيث هيمن مصطلح ''الموريسكيين'' بصفة مطلقة، بعد أن كان مقتصرا على بعض الجوانب من حياتهم فحسب.

تشترك رحلات مونتزر ودو لالينغ ونبجيرو في كونها زارت إسبانيا قبل واقعة ''الطرد'' عام 1609م، وبالتالي أدركت وجود الأندلسيين الأواخر الظاهر في إسبانيا، وقد أجمعت على الثناء على آثار المسلمين وحدائقهم في غرناطة، والميل إلى تفسير الخراب والتراجع الحضاري الكبير لإسبانيا مع انتهاء القرن السادس عشر الميلادي بعملية اضطهاد الأندلسيين الذين كانوا يحملون عبء القيام بالكثير من الأعمال داخل إسبانيا، خصوصا العناية بالجانب الفلاحي وبالكثير من الحرف، مقابل كسل الإسبان وعدم اهتمامهم بها. وتخرج رحلة الأمير قزما (Cosimo) دي ميديتشي عن هذا السياق، لأنها تمت بعد قرار الطرد أولا، ولأن صاحبها ينتمي إلى عائلة مَلَكية نبيلة في أوروبا، فصب اهتمامه في إسبانيا على حياة النبلاء والعائلات الأرستقراطية فيها.

وتمثل رحلات القرن الثامن عشر التي تقتصر على نصين إنكليزيين فحسب لسوينبورن وتاونزند، وقد لقي الأول بعض أحفاد الأندلسيين وأثنى عليهم، مقابل انتقاده للإسبان، مع أنه كان كاثوليكيا لا بروتستانتيا، في حين يصرح الثاني بعبارات واضحة وباستمرار بوجود المسلمين الممارسين للإسلام سرا في إسبانيا يومها، وإلى ضبط 56 عائلة منهم من قبل محاكم التفتيش، واستقرار أكثرهم في مناطق جبلية شديدة العزلة، وهو في هذا يتفق مع نصوص الرحلات المغربية التي تشير إلى هذه الاستمرارية.

وتعتبر مادة القرن التاسع عشر الرحلية أكثر غنى، وهي لا تبرهن على استمرار الوجود الأندلسي في إسبانيا حتى ذلك القرن فحسب، بل ساعدت المؤلف على رصد بعض مظاهر هذه الاستمرارية وملامحها، بدءا بوجود ''جماعة إسلامية'' في غرناطة وضواحيها، وبالفوارق الخِلقية والخُلقية في الملامح والطباع والصفات بين الإسبان الذين ينتمون إلى عرق أوروبي، والذين يتميزون بعقلية متسلطة أقرب إلى عقلية ''الغزاة'' التي تحتقر العمل الحرفي والفلاحي، وبين ذوي الأصل الأندلسي الذين تميل ألوان بشرتهم وشعرهم إلى الاختلاف عن نظيرتها الإسبانية، وتتميز طباعهم بحب العمل والكسب والميل إلى حسن التدبير في المعاش على العموم. وقد رأى البريطانيون بالخصوص في إسبانيا

بلدا شديد التخلف، مقارنة ببريطانيا، حيث كانت فلسفة الأنوار يومها قد هيمنت بالكامل، وعزوا بعض أسباب هذا ''التخلف'' الإسباني إلى تفريط هؤلاء في العنصر الأندلسي الذي كان يملك قابلية أكبر لتعلم العلوم التجريبية والإبداع فيها، بخلاف الإسباني الذي يحتقر العلم، ويميل إلى التعصب الديني وثقافة القوة والعنف.

ومع تدرج الرحلات الأوروبية المذكورة زمنيا، يتدرج أيضا وصفها لممارسات محاكم التفتيش التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لفرض التنصير بالقوة على الأندلسيين، ومطاردة مظاهر الحياة الإسلامية السرية لديهم، فمونزر مثلا الذي زار إسبانيا بعد سقوط غرناطة بقليل يتحدث عن أجواء من ''الحرية'' في الممارسة الدينية للأندلسيين، ولكن نص نبجيرو الذي أتى بعده، يشير إلى فرار الأندلسيين في اتجاه البلاد الإسلامية، لتجنب الاضطهاد، في حين كرس الأمير قزما دي ميديتشي جزءا من رحلته للحديث عن موضوع الكتب الرصاصية الذي يمثل حلقة مهمة من التجاذبات والصراعات بين الإسلام والمسيحية في إسبانيا خلال القرن السادس عشر.

أما رحلات القرن الثامن عشر، فتشير إلى عمليات التقتيل والإبادة والتحريق التي قامت بها محاكم التفتيش في الماضي، وفي نفس الوقت تشير أيضا إلى استمرار هذه العمليات في القرن المذكور، حتى بعد مرور قرن من الزمان على ''الطرد النهائي.'' وقد انقسم الرحالة الإنكليز بين أكثرية معارضة لأساليب هذه المحاكم متأثرة بفلسفة الأنوار التي تنتقد العنف والاضطهاد الديني والفكري، وبين أقلية يمثلها إدوارد كلارک أثنت على عمل هذه المحاكم لكونها حافظت على ''الوحدة الدينية'' لإسبانيا.

ونظرا للبعد الزمني بين القرن التاسع عشر، وبين ماضي محاكم التفتيش أثناء سنوات التضييق على المسلمين من الأندلس، فإن موضوع المحاكم هذا يرد بدرجة أقل في رحلات القرن التاسع عشر، حيث اقتصر ورود ذكرها على إشارات عابرة، باستثناء رحلة ألكسندر دولا بورد، الذي خصص لها فصلا طويلا انتقد فيه ممارساتها في حق الرعايا غير الكاثوليک، وإحلالها جو التعصب مكان التعايش الذي كان سائدا في الأندلس من قبل، والذي أسهم في تأخر إسبانيا.

ومن الطبيعي أن نصوص المرحلة الأولى؛ منذ مونتزر إلى نهاية القرن السابع عشر، تتطرق بدرجة أقل لمسألة ''طرد'' الأندلسيين، ذلک أن هؤلاء كانوا لا يزالون موجودين بقوة، ويشير مونتزر مثلا إلى قرى كاملة لا يسكنها إلا المسلمون، وإلى مدى أهميتهم في أعمال الفلاحة والحرف، ولكنه مع ذلک يشير إلى حركة نزوح أندلسية في اتجاه مدينة غرناطة حيث كان التجمع الإسلامي الأكبر لا يزال قائما. وإذا كان الرحالة البندقي نبجيرو قد انتقد إسبانيا كثيرا بسبب الخراب الذي لحق جنوب البلاد إثر فقدانه سكانه المسلمين، دون أن يستعمل كلمة ''طرد،'' ولجوء الإسبان إلى تعمير المنطقة بمهاجرين قادمين من الشمال لمحاولة إحيائها، فإن الأمير التوسكاني دي ميديتشي صمت كليا عن هذا الموضوع.

وتحضر تفاصيل الطرد أكثر في رحلات القرن الثامن عشر والتي تكاد تجمع كلها، حسب ما توصل إليه المؤلف، على التراجع الحضاري الهائل الذي عرفته إسبانيا، بسبب هذا القرار المتهور،

فالشعب الإسباني حسب هؤلاء الرحالين لم يكن مؤهلا للقيام بالأنشطة الاقتصادية ولا العلمية، وكان أكثر ميلا إلى حياة التنعم والترف التي وصل إليها عبر السطو على أملاك المسلمين واليهود بعد طردهم.

وكانت نصوص القرن التاسع عشر أكثر قسوة وحدة في انتقاد عملية الطرد؛ إذ وصف دافيي مثلا ملوك إسبانيا بانعدام الأخلاق، لإقدامهم على إخراج الناس من أرضهم، وبالغباء لإفقارهم بلادهم من عناصر بشرية منتجة كانت تحرك عجلة الاقتصاد الإسباني، في حين ينعت فورد الملك فيليبي الثالث ''بالضعيف'' وبكونه ألعوبة في يد رجال الدين يستغلونه لتحقيق أهدافهم المتعصبة تجاه الآخر المختلف ثقافيا ودينيا.

تبرز قوة هذا العمل الذي كان في أصله أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في كلية الآداب بتطوان، في غنى المادة المصدرية والمرجعية التي اعتمد عليها، والتي تشكل الرحلات الأوروبية إلى إسبانيا طبعا عمودها الفقري، وتتجلى أهمية اعتماد هذه الرحلات في كونها محايدة لا تشكل جزءا من الموضوع، فكتابها ليسوا من الضحايا الأندلسيين، ولا من إخوانهم المسلمين في المغرب أو المشرق المتعاطفين معهم، وليسوا من الإسبان الذين كان التعصب يومها يطغى على كتاباتهم تجاه كل ما هو أندلسي أو مسلم على العموم. بل إن كتابها ينتمون إلى بلدان أوروبية أجنبية عن الموضوع وليست طرفا مباشرا فيه.

وخلص المؤلف إلى أن معظم هذه الرحلات جاءت منصفة للأندلسيين ومنتقدة للإسبان وتعصبهم وممارساتهم تجاه المسلمين، واعتبرها ردا صريحا وواضحا على بعض الغلاة من المستعربين الإسبان وبعض من وافقهم في أطروحاتهم من دارسي الاستعراب الإسباني الذين يعتبرون أن الحضارة الأندلسية هي حضارة إيبيرية بالأساس خالية من أي رافد أجنبي؛ فالخراب الذي حل بإسبانيا بعد نهاية القرن السادس عشر كما تؤكد جل هذه الرحلات الأجنبية كان نتيجة لإخراج هذا العنصر الأندلسي المكون من عرب وبربر وإيبيريين متمازجين مع بعضهم البعض من البلاد، وبالتالي يعتبر وصفهم هذا نسفا لهذا الطرح العنصري الإقصائي، خصوصا أن الإسبان في الوقت الذي كانوا يطردون فيه المسلمين، كانوا يمارسون أبشع عمليات الإبادة الجماعية والتقتيل والتخريب في القارة الأمريكية، وفي هولندا في حق البروتستانت، فلا شك أن نصوص هذه الرحلات، تشكل ردا قويا على الخطاب العنصري الاستعلائي لدى بعض المستعربين وأتباعهم.

ولكن يجب ألا نغفل كذلك، أن الكثير من نصوص هذه الرحلات البريطانية والفرنسية بالخصوص المتأثرة بفلسفة الأنوار والفكر الليبرالي، كانت تمارس أحيانا دور ''الأستاذية'' على الإسبان، ويبدو كأنها تتلذذ بانتقادهم ومخاطبتهم بطريقة استعلائية يبدو فيها شيء من الانتقاص الذي يرتبط بعجز إسبانيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عن مسايرة ركب الدولة الأوروبية الليبرالية التي بدأت تتجه نحو الهيمنة على العالم.

ومن حيث الأسلوب والمنهج، استخدم المؤلف أسلوبا تاريخيا معتمدا على لغة عربية سليمة وسلسة، وقائما على المزج بين المنهج الوصفي للأحداث والوقائع والخلفيات الاجتماعية للرحالين الأوروبيين، ولمضامين رحلاتهم ونظرتها وتصورها للمجتمع الأندلسي أو لذكرى أو بقايا الأندلس بعد قرار الطرد. وبين المنهج التحليلي القائم على استنباط الكثير من المعطيات وفهم بعض الإشارات الواردة في هذه النصوص ووضعها في سياقها التاريخي والاستقصاء عن أسبابها والخلفيات المتحكمة فيها، معتمدا على تسلسل زمني يقسم هذه الرحلات إلى ثلاث مراحل زمنية: مرحلة ما بين سقوط غرناطة ونهاية القرن السابع عشر، ومرحلة القرن الثامن عشر، ثم مرحلة النصف الأول من القرن التاسع عشر. ولا شك أن المؤلف كان موفقا في اختياره وتعامله مع الموضوع.

بلال الداهية
باحث في التاريخ من تطوان